الجزء الأول المجلد الثالث والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

ربيع الأول ١٤٠٢ هـ
كانون الثاني ١٩٨٢ م

محاولة في تفسير عملية التقدم

الدكتور سعدون حمادي
(عضو المجمع)

— ١ —

في الادبيات السياسية المتداولة الآن، لغة فيها شيء من الاختلاف عن لغة الكتابة السياسية قبل عقود من السنين، ويتضح ذلك في التعابير والكلمات الجديدة: التي ادخلت واصبحت متداولة، ولكن ذلك وان كان امرا طبيعياً الا ان فيه شيئاً من الصعوبة التي تستحق الملاحظة . ومصدر هذه الصعوبة هو ان العبارات والكلمات غير محددة المعاني، ويعود ذلك الى عامل الاقتباس، من دون المحافظة على معاني الكلمات في مصادرها الاصلية واستخدامها في معاني أخرى مختلفة عن قصد أو سوء فهم . كما يوجد هناك عامل شكلي اساسه إما الرغبة في التجديد في الألفاظ أو عدم وضوح المعاني عند الكاتب نفسه وقد يكون احياناً بسبب التقليد . ومهما يكن الأمر في ذلك فهناك حاجة ماسة لضبط معاني الكلمات التي تستخدم، وتحديد معانيها بصورة دقيقة وبلغة واضحة، ليكون ذلك بمثابة المفتاح لفهم ما هو غير مفهوم في المادة المقروءه لمنع الالتباس بين معنى ومعنى آخر أو لمنع مجرد الغموض. وتلك هي وظيفة تعريف الكلمات التي كثيرا ما يستهين بها البعض معتبرا ذلك عملا ابتدائيا لا يستحق الاهتمام .

الكتابة وسيلة لنقل الافكار ، ونقل الافكار يجب ان يكون لغرض ايجابي هو في النهاية المساعدة على زيادة المعرفة أو ما يسمى في الأدبيات المتخصصة التوصل الى الحقيقة واذا لم يتحقق هذا الهدف تصبح الكتابة عديمة الجدوى

او حتى ضارة. فالتشويش الذي ينشأ عن الالتباس، ضار بحد ذاته: من حيث أنه يزعزع امرا اكتسبت شيئاً من الاستقرار في الذهن بكل ما ينطوي عليه ذلك من اضعاف الثقة ونمو الشك.

يقال احياناً ان غرض الكتابة هو ان تكون سبباً لاثارة النقاش وليس التوصل الى نتائج محددة. ان ذلك قد يكون صحيحاً وقد لا يكون اذ بجميع الاحوال يجب ان تكون الكتابة واضحة من حيث تحديد المعاني وضبط المقصود، والكتابة الغامضة لا تساعد على التفكير ولا تحرك نقاشاً ذا معنى بل تخلق الشك والحيرة وهي امور تبعد ولا تقرّب الانسان من الحقيقة.

المسألة المنهجية الأخرى الجديرة بالعناية تتعلق بدور النظرية في تكوين المعرفة المفيدة، والمقصود بالمعرفة المفيدة: المعرفة التي تساعد على ايجاد الحلول لقضايا الانسان والمجتمع. هناك فهم خاطئ وشائع لدور النظرية في عملية التقدم فكثيرا ما تعتبر النظرية على أنها كشف كامل للحقيقة بشكلها المطلق وبذلك تكون قابلة للتطبيق المطلق اي في كل زمان وفي كل مكان.

ويستند هذا الرأي على أساس وجود حقيقة كاملة مطلقة تفسر الكون والمجتمع والطبيعة البشرية، وكل ما نحتاجه هو كشف هذه الحقيقة من خلال العمل الفكري ومتى ما تم ذلك أصبح لدينا الحل لكل شيء. وبما ان الحقيقة مطلقة وتامة لذلك فالحل للمشاكل هو مطلق وتام. ان هذا الميل ناتج في الغالب عن التبسيط للامور وعن الرغبة في ايجاد معادلات جاهزة وتامة لتفسير المشاكل الاجتماعية وايجاد الحلول لها.

وهناك ملاحظتان عن النظريات المتداولة المحتوية على مثل هذه الحلول. هناك اولا عامل العقيدة المسبق، والمقصود بالمسبق: هو أنّه سابق للبحث العلمي ومايمكن ان ينتج عنه كأن يكون للمفكر عقيدة ما يؤمن بها خارج نطاق البحث العلمي موجودة لديه قبل أن يدخل مجال البحث وتكون ذات أثر في النتائج التي يتوصل

اليها ؛او بالاحرى يكون البحث العلمي وسيلة لإثباتها بدلا من أن يكون محايدا غير متأثر بموقف مسبق . فماركس كانت لديه رغبة مسبقة لإثبات حتمية انتصار الطبقة العاملة عندما وضع كتاباته ويصح نفس الشيء على عموم النظريات التي اتخذت شكل المذاهب . ففي هذه الحالة النتيجة معروفة مسبقاً قبل بدء عملية البحث العلمي . والموقف المسبق قد لا يتخذ شكل العقيدة بل قد يكون بشكل فكرة سائدة تمثل روح العصر ففي حقبات التاريخ المختلفة وفي المجتمعات المختلفة تظهر احياناً افكار تسود المجتمع وتصبح ما يصح ان نطلق عليه روح العصر . وفكرة روح العصر هذه قد تكون ذات اثر على النظريات التي تصاغ ؛أي أن تأتي النظرية كتفسير لروح العصر ، فالفكرة القومية كانت هي روح العصر في المجتمع الغربي وقت ظهور هيغل وعموم المدرسة المثالية على سبيل المثال .

والملاحظة الثانية تتعلق بعامل التبسيط والمقصود بالتبسيط هو أنّ المفكر قد يجلب انتباهه الى ظاهرة معيّنة ويبحث عنها فيجدها عاملا مهما في تفسير الكون و في فهم الطبيعة البشرية فيثار اهتمامه بها وبدلا من أن يستمر في تقصي العوامل الاخرى المعقدة يميل الى التبسيط فيجعل منها الاساس في بناء نظرية كاملة عن الكون أو الطبيعة البشرية . فقد حاول الاقتصادي شمبيتر ان يجعل من قضية الاختراعات العلمية والاكتشافات ،التضية المركزية في تفسير التقدم الاقتصادي وحدوث الدورات الاقتصادية في حين أنّ هذا العامل وإنْ كان عاملا مهماً وذا أثـر إلا انّه ليس العـامل الوحيد في ذلك وهيغل جعـل من العامل التكري العـامل الاساسي في التقـدم وتفسير التاريخ ، وماركس في مقابل ذلك جعل من العامل الاقتصادي ،العامل الاساسي في ذلك . ان جميع هذه النظريات تنطوي على التبسيط الذي أشرنا اليه .

لذلك فالنظريات يجب أن ينظر إليها على اساس انها عمل فكري مهم وضروري ؛وبامكانه ان يزيد من المعرفة ؛ولكنه يجب ان يبقى في حدود توسيع

الافق والتبصير ولفت الانتباه لبعض الامور وشحذ التفكير وتحريكه وليس من أجل التطبيق الفعلي كما يتصور البعض . وبعبارة اخرى النظرية وإن كانت مفيدة في عملية توسيع الافق وتزويد القارئ بالأدوات اللازمة للتفكير ولكنها لا تقدم حلولا جاهزة قابلة للتطبيق الحرفي كما يدّعي البعض أو يتصور. إذن النظرية كعمل فكري هي في الاساس ذات فائدة عامة لتوسيع الافق والادراك ولكنّ ذلك شيْ وايجاد حل مطلق لمشكلة المجتمع البشري شيْ آخر. لذلك فلا مناص من الطريق الصعب أي الطريق الذي لا يستبعد البحث النظري؛ ولكن لا بد من دراسة حالة كل مجتمع كحالة محددة في الزمان والمكان والاحاطة بتفاصيل اوضاعه وايجاد النظرية الملائمة لتلك الحالة أي أن يصوغ الفكر نظرية لكل مجتمع ولكل مرحلة تجمع التعميم والتخصيص بذات الوقت .

— ٢ —

المجتمع مركّبٌ معقّدٌ وليس خليطاً آنياً لا علاقة تفاعلية بين عناصره . في الخليط تبقى خواص كل عنصر على ما هي عليه اما في المركّب فينفعل عملية التفاعل تتغير خواص وصفات العناصر المكونة للمركّب. فالمجتمع مركب تدخل فيه عناصر عديدة تتفاعل بطرق مختلفة وتخضع لمؤثرات مختلفة باختلاف الزمان واختلاف المكان . صحيح هناك عوامل متماثلة في الطبيعة البشرية إلا أنّ هذه العوامل بخضوعها لمؤثرات مختلفة تنتج مركّباً يختلف من حالة لأخرى . إذن هناك عامل التشابه وهناك عامل الاختلاف. ولنبحث هذين الجانبين كل على حدة.

لنبدأ بالجانب العام المتماثل في الانسان أي الذي يوجد في جميع البشر . هناك العامل الذاتي الذي قوامه الغرائز التي تعمل في النهاية من أجل المحافظة على البقاء أي المحافظة على الذات . . فالانسان يأكل ويشرب وينام وتعمل اجهزته بطريقة مشدودة لهدف المحافظة على الذات وهذا العامل المادي الذي قوامه

الغرائز هو مصدر الانانية بهذا المعنى ، معنى الدفاع عن النفس . ويشترك الحيوان والنبات بدرجات مختلفة واشكال مختلفة مع الانسان في هذا العامل فكما أنّ في الانسان دوافع ذاتية مادية للبقاء كذلك في الحيوان والحد ما في النبات وان هي تنازعت مع الاخرين فمن اجل البقاء والاستمرار وكون الانسان وحدة حية ولكنها متناهية اي محدودة تجعله يتضمن عنصرا ذاتيا هو مصدر ما يسمى بالانانية أي الإهتمام بالذات بكل ما ينطوي عليه ذلك من الدفاع عن النفس .

ومن المهم التنويه إلى أن الميل الاناني في الانسان لا يتعلق بموضوع الاخلاق فهو قد يكون مبرراً وقد لا يكون أي قد يكون مقبولا في المجتمع يقره القانون أو قد يأخذ شكلا متطرفا لا يقره المجتمع ولا القانون ومهما يكن سواء كان شرعيا ام غير شرعي فدافعه واحد هو الحسّ بالذات . وبعبارة اخرى إنّ قضية الشرعية او عدمها قضية اخلاقية اخرى تبحث بصورة مستقلة عن موضوع الدافع نفسه . والمقصود بالميل الاناني هذا هو كل ما يحركه الشعور بالذات او ما يكون سببه الانانية سواء اكان شرعيا مقبولا من المجتمع والقانون أم لم يكن كذلك ، فالمقصود هو الدافع وليس الموقف الاخلاقي منه . والمقصود هو كامل المدى الذي يتخذه الدافع بغضّ النظر عن الحدود التي تصنعها الاخلاق او المجتمع او القانون .

إنّ الادلة على وجود هذا الميل الأناني عند الانسان كثيرة ولا يصعب ايراد الامثلة عليها . إنّ البحث عن الطعام وكل قضية كسب العيش تقع ضمن هذا النطاق وكل النشاط الذي يقوم به الانسان من اجل المحافظة على ذاته أو من أجل ذاته يقع ضمن ما نحن بصدده . إنّ بحث الانسان عن عمل يكسب من ورائه عيشه هو من أجل الذات وبضمن حدود معينة وبمواصفات معينة يعتبر هذا النشاط مشروعاً . والحروب التي تقع بين البشر هي أيضاً دوافعها في النهاية ذاتية وهي كذلك يمكن ان تكون مشروعة ويمكن ان تكون غير مشروعة فهي يمكن

أن تكون تحريرية ويمكن أن تكون استعمارية . ولكنها مهما اختلفت دوافعها فهي تقوم من أجل الذات . والدافع الذاتي الذي نتحدث عنه قد يكون مادياً وقد يكون غير مادي. فالذي نقصده هو أنْ يكون مشدودا للذات اي لذات الانسان.

في الانسان ميول للشر والانانية وللكسل وللحيازة ؛ كلها من حيث الدافع متشابهة في أنّها ميول ذاتية . إنّ هذه الميول الذاتية لا يوجد لها حدود من ذاتها ، أي من داخلها بل الحدود تأتيها من الخارج أي من دنيا الاخلاق والمجتمع والقانون ويعني ذلك أنّ هذه الميول بحد ذاتها وكما هي غير محدودة وان وقع عليها شيْ من التحديد فهو بسبب عوامل خارجية اخرى لا تعود لطبيعة تلك الميول وماهيتها ، هذا هو الجانب الغريزي في الانسان والغريزة كَمَيْل لا يوجد ما يحددها الا مما يحيطها وليس من داخلها ، أي اذا تفاعلت مع عامل آخر .

ولنتحول الآن إلى بحث العنصر الثابت في الانسان ، وهذا العنصر هو العنصر المثالي . في الانسان ميل للخير يمثله ما يسمى بالضمير ففي الانسان ميل طبيعي للاعتدال والانصاف والعدل والمساواة والتقدم الى آخر ما نعرفه من الصفات الحسنة. وهذا العنصر المثالي هو ما يمكن أنْ نعبّر عنه بعامل الخير في الطبيعة البشرية وبالتعبير الديني إنّه أثر الله في الانسان . يلاحظ أنّ الانسان بنفس الوقت الذي توجد فيه ميول انانية تدفع في اتجاه الشرّ فيه ميل معاكس لذلك ايضاً فالانسان يثور على الظلم ويضحي بنفسه من أجل الوطن ويعمل من أجل سعادة الآخرين. في الانسان نلاحظ وجود سعي متواصل في التاريخ من أجل التقدم تدل عليه الثورات وجهود المصلحين ؛ وما ظهور الاديان ونشوء الحضارات الا الدليل على هذا الميل . فحيثما يوجد الظلم تتحرك ايضاً في الانسان ميول العدل وحيثما يوجد الفقر تنمو في الانسان الرغبة والسعي من اجل إزالته وحيثما يوجد الفساد تنمو ميول الاصلاح الاجتماعي وهكذا . في الانسان جانب خير يتنبه ويفعل مفعوله بدرجات متباينة حسب الحالة والظروف . وما النضال المستمر في البشرية من أجل المثل العليا إلا التعبير العلمي عن هذا الميل الاصيل في الانسان .

إذن هناك ميل الشر وهناك ميول الخير في الانسان ، والصراع قائم ومستمر بينهما ، ذلك الصراع الذي يتجسد في جميع حقبات التاريخ ويطبع المجتمع بطابعه ، ويلاحظ أنّ عملية الصراع المستمرة في التاريخ تأخذ اشكالا متعددة ، فهي صراع الانسان مع الطبيعة ، وصراع الانسان مع الانسان . ان صراع الانسان مع الطبيعة ، هو من أجل اخضاعها لمتطلبات حياته او توقي أضرارها ، وصراع الانسان مع الانسان هو من أجل التقدم في ناحية ما أو تجنب الضرر الواقع في ناحية من النواحي ، وبصورة عامة فعملية الصراع هذه مستمرة ، وقد تعددت النظريات حولها ، إلا أنّها في النهاية ليست الا نتيجة للتعارض بين الميول المختلفة ، الخير من جهة والشر من جهة اخرى . والصراع قد يكون في داخل الانسان نفسه مرة يميل به نحو الخير وأخرى يميل به نحو الشر ، وقد يكون بين انسان وانسان آخر ، أحدهم في اتجاه الخير والآخر في اتجاه الشر . كما قد يكون بين جماعات منها في هذا الاتجاه ومنها في الاتجاه الآخر وهكذا .

ان عملية التلاؤم والتوازن بين هذين المَيْلَيْن المتعارِضَيْن هي التي تقرر أين يقف هذا الانسان ، أو أين تقف هذه الجماعة من مجمل الامور ، الشيْ الأساس هو وجود هذين الميلين المتعارضين فتارة يحصل بينهما نوع من التلاؤم ، فتخف حدة التناقض ، وتارة يزول او يقل التلاؤم فتزداد حدة الصراع وتتوسع الفجوة القائمة بينهما .

— ٣ —

ولكن هذا التناقض بين ميول الخير وميول الشر في الانسان يخضع بدوره لعوامل مؤثرة عديدة ، أي إنّ عملية التفاعل بينهما تجري تحت متغيرات وظروف عديدة تؤدي إلى إختلاف في النتيجة . أي إن عملية التقابل بين الميلين لا تجري بصورة مبسطة ، وبمعزل عن عوامل التأثير الاخرى الوراثية والمحيطية ، أي ما يتعلق منها بالوراثة وما يتعلق منها بالمحيط . بالمعنى الواسع لعبارة المحيط

أي بكل ما يشتمل عليه من تأثيرات كالثقافة والتربية والخضوع للقانون والعيش في المجتمع. والأمر في هذا يشبه عملية اجراء التجارب في العلوم الطبيعية كالكيمياء والنبات .

إنّ عملية التفاعل بين عنصرين يمكن اجراؤها مع تثبيت المتغيرات الاخرى كالحرارة والرطوبة وضغط الهواء أما إذا أجرينا التجربة وسمحنا للمتغيرات ألاّ تكون ثابتة أي جعلناها متغيرة عندها بامكاننا الحصول على نتائج مختلفة باختلاف تلك المتغيرات وكذلك الحال في عملية التفاعل بين ميول الخير والشر في الانسان. فانها تجري تحت متغيرات عديدة مؤثرة في النتيجة لذلك فإنّ عمليـــة التفاعل هذه إنّما هي عملية معقـــدة جداً ولا يمكن أنْ تأخذ نمطاً محدداً ولا يمكن التنبؤ بنتائجها على وجه الدقة .

ولعلّ أهمّ عامل في التعقيد هو أنّ الانسان نفسه كائن معقد ؛ نتيجة أوضاعه الجسمية والنفسية ومدى تأثُّره بعوامل المحيط الذي يعيش فيه ، لذلك فلا حصر للأشكال التي يمكن ان تنتج عن عملية التفاعل هذه بين ميول الخير وميول الشر الموجودة فيه . إنّ علم النفس ما يزال في بداياته وما يزال قاصرا عن فهم الطبيعة البشرية وكيفية تصرف الانسان بسبب هذا التعقيد . إنّ البحوث النفسية التي أُجريَتْ قد أوضحت أوّل ما أوضحت مدى هذا التعقيد .

ولنستعن على شرح هذه الفكرة بالعلوم الطبيعية. إنّ جسم الانسان يختلف من فرد لآخر ولا يوجد جسم انسان مطابق لجسم انسان آخر من حيث مقاومة الامراض والاستجابة للمؤثرات أو أداء المهمات الوظيفية لاعضاء الجسم ؛ فردود فعل الجسم للمؤثرات والامراض تختلف من إنسان لآخر ومـــدى تكيفه لظروف المناخ وباقي المؤثرات كالجراثيم والأمراض كذلك يختلف من انسان لآخر. إنّ القدرة على التحمل تختلف ، ودرجة التكيف للظروف تختلف لذلك لا يموت اثنان بوقت واحد حتى لو أُصيبا بنفس المرض بنفس الوقت ولا يتجاوب جسم لدواء كما يتجاوب

جسم آخر وهكذا وتلك حقيقة طبية يعرفها الاطباء في معالجتهم لمرضاهم . إذن فكل جسم حالة قائمة بذاتها لا تشابهها اية حالة اخرى ويلاحظ ايضاً أنّ لكل انسان شكل وجهه الخاص وصوته الخاص ومشيته الخاصة وطبع اصابعه الخاص ويرجع ذلك الى وجود عوامل كثيرة تتفاعل بصورة معقدة وتحت ظروف متباينة تؤثر في تكوين هذه الصفات الجسمية .

ومن الناحية النفسية والفكرية كذلك كل انسان حالة قائمة بذاتها ، وذلك لا يعني عدم وجود عوامل مشتركة بين انسان وانسان آخر ولا يعني انعدام امكانية التشابه في بعض الامور بل المقصود هو أنّ الانسان يشترك مع آخرين بأمور معينة ويختلف في أمور أخرى . والمجتمع تركيب عضوي متفاعل تتكون له شخصية معينة نتيجة لعوامل عديدة وهي العوامل المشتركة في الماضي والحاضر ولذلك تكون فيه عوامل تماثل وعوامل اختلاف . والانسان كما قلنا مركب معقد وكذلك المجتمع فهو مركب معقد فهو يتفاعل مع الظروف المحيطة به وكما ان تفاعل الانسان مع الظروف يختلف من انسان لآخر كذلك المجتمع بتفاعله مع الظروف يختلف عن المجتمعات الاخرى . ولذلك كانت هناك عوامل من عوامل التشابه بين الافراد والى جانب ذلك هناك عوامل اختلاف نابعة من أنّ عملية التفاعل تجري بصورة مختلفة من مجتمع لمجتمع آخر .

لكل مجتمع تاريخ لا يمكن ان يتماثل مع تاريخ مجتمع آخر كما أنّ حاضر مجتمع ما ليس هو تماماً كحاضر المجتمعات الاخرى وطريقة التأثر بالماضي والحاضر تختلف من مجتمع لمجتمع آخر . الخلاصة هي ان المجتمع مركب عضوي وليس خليطاً آلياً ولذلك كانت هناك الامم والمجتمعات ذات الملامح والشخصية المستقلة الواحدة عن الأخرى . وهذه هي جذور نشوء القوميات في علم الاجتماع . والمجتمع من ناحية اختلافه عن المجتمعات الأخرى لا يقتصر الاختلاف على ذلك فالمجتمع الواحد يختلف من مرحلة تأريخية لمرحلة تأريخية اخرى لنفس الاسباب

أي إنّ المجتمع يسير في تطور تاريخي وهو يتفاعل تحت ظروف ومتغيرات متغيرة دائماً لذلك فعندما يقارن بمجتمع آخر نجده يختلف عنه في الشخصية التي يكوّنها . ومن هنا وبالرغم من وجود عوامل تشابه بين مجتمع ومجتمع آخر وبين مرحلة ومرحلة اخرى لنفس المجتمع نجد هناك عوامل الاختلاف والحصيلة من كل ذلك هي أنّه لا يوجد مجتمع يشبه مجتمعاً آخر والمجتمع نفسه لا يمكن ان يكون في مرحلة مشابهاً تماما لما كان عليه في مرحلة اخرى من تاريخه . والسبب الاساسي في عامل الاختلاف هو عدم إمكان تثبيت العوامل المتغيرة وإخضاعها لظروف متماثلة كما نستطيع في حالة إجراء التجارب في المختبر في مجال العلوم الطبيعية .

— ٤ —

قلنا هناك عوامل ثابتة متشابهة في الانسان بجانب العوامل المتغيرة ، والعناصر الثابتة في الانسان هي الميل للخير مقابل الميل للشر والصراع قائم بينهما دوما . ان ظهور الاديان وحركات الاصلاح والتقدم البشري والحضارة تشكل دليلا على وجود العنصر الثابت في الانسان وهو العنصر المثالي ، والعامل المثالي هذا ليس وضعا نفسيا أو شيئا يصنعه كل انسان أي إنّه ليس نسبيا بل مطلقاً مستمداً من قيمة عليا في الكون تعبيرها الديني هو الله . لذلك فهناك مقياس ثابت مطلق للخير والشر .

ان قضية الخير ليست نسبية ، بل هي مطلقة وفوق الجميع ، ولا تخضع لارادة الفرد . فالضمير ظاهرة ازلية في الانسان لذلك وبغضّ النظر عن التفاصيل والتفسيرات بقيت على العموم القيم الاخلاقية العليا مطلقة فوق الاجتهاد وارادة الفرد . إنّ جعل القيم الاخلاقية نسبية كما هو الحال في بعض الفلسفات يهدف في النهاية الى غرض مسبق هو التحلل من المقاييس المطلقة واحلال مقاييس نسبية مكانها تخضع للاجتهاد وبالتالي لارادة الانسان وتكون النتيجة أنْ يصبح الحق هو ما يقرره الانسان أي الانسان القويّ او الناجح .

إنّ القول بنسبية القيم العليا كان دوما رغبة الذين يريدون تبرير استغلال الانسان

للانسان واستعمار امة لامة . إنّ القول بأنّ القيم هي من صنع الانسان يهدف في النهاية الى الرغبة في أنْ يتحلل الحاكم من قانون أعلى منه تقاس بموجبه أعماله وتصرفاته وجعل ذلك القانون خاضعاً لمشيئته أي تحويله من مطلق إلى نسبي . في كل مجتمع هناك مقياس مطلق للخير والشر تُقَوَّم بموجبه تصرفات الافراد وتحدد بموجبه العلاقات فيما بينهم وفيما بينهم وبين الحاكم . وبين كل مجتمع ومجتمع آخر هناك مقياس مطلق للخير والشر تقاس به تصرفات كل أمّة ومرقفها من الأمم الأخرى وتُقَوَّم بموجبه تصرفاتها في الحياة الدولية . والمرقف الاخلاقي هذا من شأنه ان يحل النظام محل الفوضى ، والضبط محل التحلل ، وبذلك تستقيم الحياة في داخل المجتمع وفي العالم . للانسان حقوق أساسية لا يمكن السماح لفرد آخر بالتجاوز عليها وهذا هو أصل العدل الإجتماعي . وللفرد حقوق أساسية ازاء الحاكم وهذا هو اساس التنظيم الديمقراطي ، وفي العالم هناك حقوق اساسية لكل دولة لا يجوز الاعتداء عليها من قبل أيّة دولة أخرى وهذا هو أساسُ التعايش السلمي والعلاقات الدولية السليمة .

إنّ بحث قضية إرادة الخير عند الانسان وفي الكون تمتد لحقل البحث الفلسفي ، وتتعلق بصورة وثيقة بذلك الجدل التاريخي القائم بين المدارس المثالية وغيرها ، وتتعلق ببحث مسألة الطبيعة وما وراء الطبيعة. ومهما يكن الامر وحتى لو أنّنا تركنا موضوع ماهية الشيْ أي بحث جوهر وجوده فإننا لا نعدم وجود الأدلّة الواضحة عليه في الانسان وفيما يحيطه . إنّ الأدلة على ميل الخير عند الانسان كثيرة ولعل أكبرها هو النضال المستديم من أجل التقدم في كافة النواحي ، الذي قاده الانسان بمفاهيم لحد ما ثابته خلال العصور من حيث الجوهر وإنْ اختلفت في الاشكال. إنّ الاهتمام بالأدلة على الشيْ بدلا من بحث الشيْ نفسه قد لا يكون طريقة منهجية تامة في البحث إلا أنّني لا أجد المبرر للتغلب من هذا البحث للاستنتاج العكسي أي بعدم وجود هذا الميل وبالتالي الى نسبية القيم .

— ٥ —

يولد كل انسان وفيه ميول للخير وميول للشر ، ويتفاعل هذان العاملان تحت تأثير متغيرات ، منها ما يتعلق بالوراثة ، ومنها ما يتعلق بالمحيط ، وبذلك تختلف علاقة ميول الخير بميول الشر ، من انسان لانسان آخر ، كما سبق ايضاحه . هناك صفات تحملها الوراثة من الآباء الى الأبناء بطريقة ليست ميكانيكية بالطبع ولكن العلاقة موجودة وتدلل عليها نظريات علم الوراثة والبحوث التي أُجْرِيَت على ذلك ، ومهما يكن من أمر ذلك فالمهم هو أنَّ الصراع موجود في كل إنسان .

هنالك حالات معينة تكون فيها ميول الخير قوية ومتحكمة بميول الشر ، الى درجة عالية جدا ، يصل الانسان فيها الى حد النبوة ، وما الانبياء والمصلحون الا من هذا النوع ، حيث يتمتع هؤلاء الافراد بحالة نفسية خاصة من الصفاء والتركيب الملائم بحيث تكون ميول الخير قوية ، والقدرات على التعبير عنها قوية وبوضع خاص . إنَّ مثل هؤلاء الافراد القلائل في التاريخ بالنسبة لمجموع البشر ليسوا إلاّ حالات خاصة من العلاقة بين العاملين المذكورين . وهناك في الطرف الآخر عدد من الافراد الاشرار الذين تكون فيهم العلاقة معكوسة حيث تقوى ميول الشر على ميول الخير لدرجة كبيرة جدا . ان هؤلاء الناس بفعل عوامل وراثية ، وعوامل تتعلق بالمحيط تضعف عندهم ميول وتقوى ميول ، الى حد السيطرة التامة تقريباً لميول الشر ، الامر الذي يطبع شخصيتهم ، ويحولها في اتجاه واحد تقريباً . ثم هناك الاغلبية الكبيرة من الافراد الذين يتعون بين هذا القطب أو ذاك ، حيث توجد عندهم علاقات بين العاملين مختلفة من حالة لحالة اخرى ، فكلما كانت ميول الخير أقوى اقترب من القطب الاول والعكس بالعكس. ان هؤلاء الناس هم الاكثرية الساحقة لذلك قيل ان الناس ليسوا ملائكة ، وليسوا شياطين، فهم بين هذا وذاك .

ومن هنا يتضح أنّ الفرد الذي من هذا النوع ، والذي تتأثر علاقة عامل الخير بعامل الشر فيه ، بما يحيطه من ظروف ، يصبح من الممكن التأثير فيه ، عن طريق التأثير بتلك الظروف ، وهذا هو دور التربية ودور القانون في تقويم الانسان المواطن .

ان التربية البيتية والمدرسية تلعب دورا مهما في تكوين شخصية الفرد لذلك فإصلاح نظام التربية ، وعناية الاسرة بالطفل ، ذات أهمية في تقويم الاخلاق وخلق المواطن الصالح . إنّ عملية التقويم هذه وخلق المواطن هي في الحقيقة لا تعدو عملية تقوية ميول الخير ، وإضعاف ميول الشر عند الطفل ، وليست عملية غرس جديدة ، أو اقتلاع شيءٍ موجود ، فالخير والشر موجودان في الطفل ، وهما في حالة صراع ، ويمكننا عن طريق التوجيه العائلي والتربية المدرسية بكل ما تعنيه من نشاط ، أنْ نُغَلِّبَ مَيّالاً على مَيل ، ونقوّي جهة على جهة . إنّنا لا نغرس الصفات الحسنة ، وروح المواطنة في الفرد ، كما قد يتصور البعض ، وإنّنا لا نقتلع جذور الفساد والانانية وكل ما هو شرير ، من الانسان بهذه العملية ، بل نقوّي جانباً ونضعف جانبا آخر لذلك فالتربية لا تستطيع أنْ توجد انسانا ملاكا ولا أنْ تخلُقَ نبيا . انها عملية تحسين لوضع وليست عملية خلق جديد من لا شيءٍ .

ان التوجيه البيتي والتربية المدرسية وغير المدرسية بكل ما ينطوي عليه ، من تزويد بالحقيقة وضرب المثال الحسن ، وتحليل الامور وتقوية للفكر وتوسيع للمـــدارك ، وتدريب على ضبط النفس ، وتهـــذيب للغرائز ، وكبح لجماح الرغبات المفرطة وتدريب على الفضيلة ، تؤدي هذا الغرض الذي نقصده ، ألا وهو تقوية ميول الخير وكبح ميول الشر ، وجعل الاولى تتغلب على الثانية .

وليست التربية بشقيها المدرسي وغير المدرسي هي الوسيلة الوحيدة ، لتقويم الشخصية وبناء المواطن الصالح ، اذ لا بد من وجود نظام للعقاب والثواب فـــي

المجتمع ، يعاقب بموجبه المسيىء ، ويثاب بموجبه المحسن ، وهو النظام الذي تطبقه المحاكم والذي يمكن ان تعبر عنه مجمل القوانين والانظمة والعادات الاجتماعية السائدة في المجتمع . ويشكل ذلك طريقة أخرى لنفس الغرض ، فيها عامل الترغيب وعامل القسر فالجريمة تعاقب بموجب القانون ، والعمل الحسن يثاب من قبل المجتمع ، أي أنّ يرجع على صاحبه بمنفعة إمّا مادية او معنوية او بالاثنين معاً . إنّ مثل هذا النظام يساعـــد ايضاً بما يغرسه من أثر تربوي ، وعلى الامد البعيد ، على تشجيع ميول الخير وكبح ميول الشر . صحيح إنّ ذلك قد لا ينجح مع جميع الاشخاص إلا أنّه لا يعدم الأثر في حالة الاغلبية منهم . إنّ الذين تكون ميول الخير قوية فيهم أحد بعيد ، لا يحتاجون للثواب من أجل ان يقوموا بالاعمال الحسنة ، بل هم يقومون بها بدوافع اخرى صادرة عن ذاتهم او عن تربيتهم . أي أنّ يكون مصدرها إمّا الوراثة او التربية . كذلك هناك بعض الافراد الذين تكون عندهم ميول الشر اقوى من ميول الخير ، قد لا ينفع معهم العقاب ولا يكون مانعا لهم من ارتكابه ، فمثل هؤلاء هم اقرب الى القطب الثاني الذي تحدّثنا عنه ، والمثال على ذلك هم محترفو الجريمة وذوو السوابق من المجرمين إنّ هؤلاء لا ينفع معهم العقاب شيئا ، إلاّ أنّ الاغلبية من الناس الذين يتراوحون بين القطبين لا بد من ان يكون للعقاب اثر ما في تقويم سلوكهم ، وإنْ تباينَ من شخص لآخر ومن حالة لاخرى .

ولذلك نجد ان المجتمع أيّ مجتمع لا يستطيع أنْ يستغني عن نظام للعقاب والثواب ، ونظام للعدالة ويعود ذلك إلى حقيقة أنّ اغلبية أفراد المجتمع ، هم ليسوا مجرمين بالطبيعة كما يقال ، بل فيهم الى جانب الشر ميول للخير ، ومن المفيد معاقبة ميل وتشجيع ميل آخر . عند هؤلاء يكون للعقوبة أثر تقويمي عندما تطبق بعدالة وعلى الجميع ، وعلى المدى الطويل .

وقد تتخذ الوسائل لتشجيع ميول الخير شكلاً آخر غير التربية وغير العقاب والثـــواب وهو طريق خلق الظروف للتلاؤم بين سلوك الفرد ومقتضيات المصلحة

العامة. أي إنّ تشجيع ميول الخير قد يأتي عن طريق الحوافز فزيادة الدخل كمكافأة لزيادة الانتاج ، والضمان الاجتماعي في حالات الوفاة او العجز كمشجع للدفاع عن الوطن ، ومنح المكافآت المادية والمعنوية لتشجيع الابداع والابتكار : كلها وسائل من وسائل التشجيع لميول الخير ، من أجل أنْ تتغلب على ميول الشر أي أنْ تَتَغَلَّبَ ميول العمل على ميول الكسل ، وميول الدفاع عن الوطن على ميول التقاعس ، وميول الإبداع على ميول الخمول وهكذا .

في جميع هذه الحالات تقوم التربية والقانون والتنظيم الاجتماعي بمهمة تحفيز ميول معينة وتثبيط ميول معينة اخرى وبذلك تؤدي دور التقويم لسلوك الفرد كمواطن في المجتمع . وعندما نتحدث عن بناء الانسان الجديد ، علينا أن نتوجه لجميع هذه النواحي ، فبناء الانسان الجديد ليست عملية وعظ ، بل هي توجه لمعالجة الميول الموجودة في الانسان ، بحيث تخلق عملية تغليب واحدة على الأخرى ، من خلال بناء مستمر تتضافر فيه جميع الجهود فحيثما كان المواطن كانت هناك قوى دافعة في اتجاه معين هو اتجاه الخير في البيت والمدرسة والمحيط ومكان العمل وكل مكان . هذا ما هو موجود في المجتمعات المتقدمة التي تعنى بصورة جوهرية بشؤون التربية والتعليم والاصلاح الاجتماعي القانوني وغير القانوني ، من أجل تكوين ما يسمى بالمواطن الصالح .

— ٦ —

ان هذا التحليل يقودنا لبحث جانب آخر هو قضية الصراع الاجتماعي . في المجتمع صراع دائم بين القديم والجديد ، أو بين الحق والباطل . وهذا الصراع ليس الا صراعا جذوره في الصراع الموجود في داخل كل انسان وفي هذا المجال ، لا بد من بحث مسألة مهمة هي الأشكال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المعبر عنها بانظم . ان الصراع الموجود في كل فرد بين ميول الخير وميول الشر قد يتخذ أشكالا متعددة ، وهو كصراع لا بد له من موضوع او قضية ، فما هو الموضوع وما هي القضية ؟ هناك مواضيع وهناك قضايا في المجتمع . قد يكون

موضوع الصراع هو النظام السياسي بين الملكي والجمهوري ، بين الديمقراطي والمستبد على سبيل المثال . وفي المجال الاقتصادي قد يكون الصراع حول توزيع الدخل بين الطبقات ، وحول رفع مستوى المعيشة للمواطنين ، أو حول امور تفصيلية بضمن ذلك ، كزيادة الاجور ، او زيادة او تخفيض الاسعار . . . الخ . وفي المجال الاجتماعي قد يكون الصراع حول حرية المرأة ، أو محو الامية او مجانية التعليم ، أو الصحة العامة ، أو الضمان الاجتماعي أو الأحوال المدنية . . . الخ. المهم هو أنّ الصراع يتجسد في مواضيع تخصّ حياة المجتمع المادية او المعنوية صراع بين المؤيد والمعارض ، والمطالب والممتنع ، هذه هي جذور الصراع في المجتمع وهذا هو تفسيره .

صحيح إنّ جذور الصراع في النهاية ترجع للفرد الذي هو وحدة المجتمع الأساسية إلاّ أنّ ذلك لا يستبعد تكوين الجماعة او الطبقة . فالافراد وإنْ تباينت أحاسيسهم ومواقفهم الفكرية والنفسية ،من قضايا الخطأ والصواب ، والحق والباطل ، إلا أنّ ذلك لا يعني عدم وجود امكانية للتقارب بين مجموعة من الافراد ، بينها عوامل تماثل الى جانب عوامل الاختلاف ، إذن فتكوين الجماعة أمر ممكن على أساس العوامل المشتركة ، فهناك أفراد تكون بينهم علاقة مشتركة ، فكريا أو مهنياً أو طبقياً فيحصل التقارب بينهم فيكوّنوا جماعة معينة والطبقة هي احدى أشكال هذه التكوينات . الامر الذي يعني امكانية قيام الطبقات في المجتمع . وقد تتجمع عدة تجمعات وتكوّن رابطة فيما بينها كما يحصل في التنظيمات النقابية ، أو الهيئات العلمية أو الطلابية . المهم هو أنّ هذا التحليل يسمح بتكوين الجماعة مهما كان نوعها او مهمتها . والحزب السياسي هو نوع من انواع التكتل الاجتماعي .

إنّ صراع ميول الخير مع ميول الشر في المجتمع ، يمكن ان يُنَظّم من الناحية العملية ، فهو ليس تضاربا مبهما يختلط بعضه بالبعض الآخر ، بدون حدود

ولا فواصل . إنّ عملية التنظيم وتوضيح العوامل المشتركة وعزل العوامل الرئيسية عن العوامل الفرعية ، وتوضيح المهم عن الأهمّ بامكانها تصفية الصراع الاجتماعي وتنظيمه في قوالب تساعد على زيادة الفهم وتسهل الامور العملية . لذلك فالصراع الاجتماعي يميل عادة نحو الإستقطاب والتصنيف حول أمور أساسية كأنْ تجمل جميع القضايا التقدمية ، التي عليها نوع من الاجماع او ما يقاربه ، وتصاغ بشكل مبادئ اساسية ، وكذلك الحال بالنسبة لما هو عكس ذلك . ومن عملية التنظيم والتصنيف هذه ، ينشأ معسكر رجعي ومعسكر تقدمي وكلمة معسكر معبرة في هذا المجال ، للتعبير عن أنّه اجتماع لأفراد توجد بينهم عوامل اختلاف ، ولكن تجمعهم بعض عوامل التشابه . وهكذا يتضح الصراع الاجتماعي بين ما اصطُلِحَ على أنّه تقدمي ، وبين ما اصطُلِحَ على أنّه رجعي ، وكلاهما قد يضم افراداً او تجمعات من انواع مختلفة .

— ٧ —

إذن الصراع في المجتمع موجود منذ وجد الانسان فكيف كان تطوره ؟ إن العملية التنظيمية التي تتكون من خلالها الشعارات المعبرة عن المبادئ ، وتتحدد بناءً عليها القضايا التي يدور حولها الصراع . ليست إلا عاملا مساعداً ، وليست إلا بلورة للأمر الجوهري الموجود شيءٌ منه في كل فرد . ان عملية الصراع هذه تأخذ في البداية شكل اختلاف الآراء ولكن بمرور الوقت يؤخذ هذا الاختلاف شكلاً اكثر حدة بسبب ما ينتج عنه من نتائج عملية في المجتمع . إنّ اختلاف الرأي بمرور الوقت يزداد حدة فيتحول الى تناقض .

والفكر هو محرّك الانسان ، لذلك فاختلاف الفكر ينتج عنه اختلاف مادي بين الافراد أنفسهم . بالطبع إنّ اختلاف الآراء بالتفاصيل قد يزول بمرور الوقت ، وقد يُحَلّ نتيجة للتفاهم ولكن الآراء التي تعبر عن قضايا اجتماعية متناقضة ليست من هذا النوع . والآراء التي تعبر عن مواقف يزداد التناقض

بينها حـــدة والنقاش يساعد على زيادة توضيح التناقض بين الافكار وتظهـــر عملية الاستقطاب والتضارب . وعندما يظهر الجانب الآخر جموداً او اصراراً على موقفه تزداد حدة الصراع ويتحول من شكل فكري إلى شكل مادي يهدف إلى إزالة الاشخاص الذين يمثّلون الافكار المراد تغييرها . فإن كان هـــؤلاء الافراد طبقة اجتماعية ، أصبح الهدف ازالتها وإن كانوا في السلطة أصبح الهدف تغيير تلك السلطة .

ويأخذ الصراع أشكالا ووسائل متعددة منها فكري ومنها مادي ، منها من خلال المؤسسات الموجودة ، ومنها خارج تلك المؤسسات ، ومنها العلني ومنها السرّي ، وهكـــذا ينمو الصراع ويزداد قـــوة . إن عمليـــة الصراع الفكري والمادي يكون لها أثر على الفرد في ناحيتين . الناحية الاولى تربوية وتتعلق بأحداث تغيير في شخصية الفرد نفسه فالصراع بين المعسكر التقدمي والمعسكر الرجعي . بكل ما ينطوي عليه من تثقيف ودعوة وشرح ونضال يومي ، يساعد على تشجيع ميول الخير عند الآخرين ، ويكبح ميول الشر عندهم ، وبذلك تبدأ عملية الوعي بالتوسع ويتنبه الضمير العام لجمهور الشعب ، فيزداد عدد أفراد المعسكر التقـــدمي تباعا . وهكذا يتكوّن المناضلون . في البداية يكون عدد أفراد المعسكر التقدمي قليلاً وبمرور الوقت واشتداد الصراع يزداد العدد وتلك هي فكرة الطليعة التي تقود المجتمع في الطريق الصحيح .

أما القناة الثانية فهي الاستيلاء على السلطة السياسية . فالسلطة بما تنطوي عليه من قدرات مادية ومعنوية ، وبما تمتلكه من وسائل التربية والتوجيه العام . والقدرة على اصلاح القوانين ، يمكن ان تكون عاملا مساعدا على استنهاض ميول الخير عند المواطنين ، وتغليبها على ميول الشر . عن طريق إعادة بناء الانسان وتوجيهه في الطريق السليم .

وبذلك يحصل التقدم في المعسكر التقدمي ، والتراجع في المعسكر الرجعي الذي

يأخذ بالتآكل بمرور الوقت : حتى يتحقق انتصار المعسكر التقدمي ، عندها يبدأ بعملية اعادة البناء للمجتمع حسب افكاره وشعاراته ؛ التي تبلورت منذ بداية النضال وخلال مسيرته . ولكن ذلك ليس نهاية المطاف ؛ فالاشكال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الملائمة لهذا الوقت ؛ والتي تعتبر تقدمية ليست كذلك في الازمنة القادمة ؛ بل هي أيضاً تصبح بمرور الوقت بحاجة الى اصلاح او تبديل ، وهنا يصبح لا بد من عملية الاصلاح او التبديل ؛ وهي إما أن تتم من داخل النظام وعلى يد نفس المعسكر ، أو من خارجه ، وعلى يد معسكر تقدمي آخر ، مارة بنفس عملية الصراع بمراحلها التي ذكرناها . ولا يغرب عن البال في هذا المجال أنّ عملية التغيير التي يأتي بها الصراع قد تكون تدريجية تراكمية ، وقد تكون حادة وفجائية . ويعتمد ذلك على مرقف المعسكر الرجعي . فاذا كان المعسكر الذي يتمسك بالموجود سمحاً ، ومؤسساته مرنة تسمح من خلالها لعملية التغيير أنْ تتمّ ؛ جاءت عملية التغيير متدرجة وتراكمية ؛ وإنْ كانت على عكس ذلك متحجرة ومصرّة ؛ كانت النتيجة الاصطدام والتغيير الحاد .

إنّ عملية الصراع مستمرة في التاريخ ؛ بعضها يأخذ الشكل المنظّم المعبّأ بمعسكرين ؛ وبعضها يأخذ أشكالا أخرى ؛ فالاختراعات العلمية والاكتشافات الجغرافية ؛ أشكال أخرى لإحداث التغيير ؛ كما أنّ نظريات الاصلاح الاجتماعية ذات الأثر البطيء مثال آخر . وفي مقابل ذلك هناك الثورات الكبرى والاديان السماوية وحركات الاصلاح الرئيسية .

ويجب ألاّ يتبادر الى الذهن أنّ عملية الصراع هذه عمياء تجري بدون هدف وليس لها غرض بل العكس من ذلك ؛ فهي عملية هادفة ذات اتجاه فعملية تنبه الضمير ويقظة الوجدان مستمرة ويعني ذلك أن الاتجاه العام . هو في صالح التغلب المستمر لميول الخير على ميول الشر ، وإن كان ذلك لا يأخذ خطاً مستقيماً صاعدا ؛ بل هو متعرج احيانا . إنّ عملية التقدم في التاريخ ليست بسيطة بل

معقدة ، ولكنها ذات هدف فالبشرية في تقدم مستمر ؛ وإن كان للتقدم جوانب سلبية . إن الوعي البشري آخذ في التوسع بفعل عملية التكشف المستمر لحقيقة الكون والانسان . ولكنّ القول بذلك شيٌ ، والقول بالحتمية التأريخية شيٌ آخر . إنّ عملية التقدم تجري من خلال الانسان فهي بفعل إرادته الحرة ؛ وليست خارجة عن ذلك ، فالقوة التي تحرك التاريخ ليست خارج الانسان . كما هو الحال في الماركسية ؛ بل إنّ تفاعل قوى الدفع والجذب يتم داخل الانسان حيث تعمل الإرادة عملها . فالـذي يعمل هو الفكر البشري ؛ والذي يتنبـه هو الضمير البشري ؛ والذي يعمل هو الانسان ؛ ومن ناحية أخرى . القول بالارادة الحرة للانسان ، لا يعني انعدام وجود ارادة في الكون . هناك إرادة في الكون يمثّلها العنصر المثالي ، ولكن ذلك موجود في كل إنسان بوضعية ما ، وبشكل ما . وهو في صراع مع عامل معاكس . هو انانية ذلك الانسان ، ومن حصيلة التفاعل ينتج تقدم في طريق انتصار ارادة الخير ، التي هي جزء من الارادة العامة للكون .

وبهذا المعنى يكون الانسان هو مركز الكون والعنصر المهم فيه ؛ لذلك كان خلق الظروف الملائمة لجعل عملية التفاعل فيه ؛ تتم لصالح قوة الخير ، من الامور الضرورية ، وهي واجب الفرد ، وواجب المجتمع بنفس الوقت . ومن هنا كان التأكيد على كرامة الانسان التي هي تعظيم للاثر الروحي الموجود فيه وكان التأكيد على الحرية . وهذا هو معنى خلق الظروف المساعدة للانسان . لاطلاق امكانياته ؛ وتحـرير قوى الابداع فيه . وبكلمـات مختصرة هـذا هو معنى العناية بالفرد ، والعناية بالمجتمـع ومن خلالها يتضح التوازن بينهما . فالفرد بحد ذاته قادر على خلق ما هو ملائم لاطلاق امكانياته وتحرير إرادة الخير فيه . والمجتمع أيضاً قادر على خلق الظروف المساعدة على ذلك . لذلك فالمجتمع الصحيح هو المجتمع الذي ينال فيه الفرد والمجموع العناية . فالتأكيد ليس على الفرد وحده ، وليس على المجموع وحده ، بل على الاثنين معا . المجتمع ليس هو مجموع الافراد بل هو المركب الذي ينتج عن تفاعل الافراد خلال الزمن .

لذلك فهو شيٌ مختلف وإن كان مشتقاً من الأفراد . (اي كانت مادته الاولية من الافراد) . إذن فالفرد مؤثر والمجتمع مؤثر ؛ وعندما نقول المجتمع نعني بضمن ما نعني الدولة ، وهي التنظيم الذي يعمل المجتمع من خلاله كجسم حي ؛ له وظائف وله خصائص ، وبذلك يكون معنى الحرية معتمداً على الفرد وعلى المجتمع ؛ فهي ليست حرية الفرد بالمعنى الرأسمالي الغربي ؛ وليست حرية المجتمع بالمعنى الدكتاتوري ، بل هي حرية متوازنة .

— ٨ —

يتبين مما فات أن العالم في حقيقته ؛ مكون من أفراد منتظمين في مجتمعات . فالفرد هو مركز الكون ؛ ولكنه لا يعيش منفرداً لذلك كانت هناك المجتمعات . والامة هي مجتمع تفاعل فيه الافراد مع العوامل المشتركة كاللغة والتاريخ المشترك . . . . الخ وهي مجتمع له شخصية مستقلة عن شخصية الأمم الأخرى . وتكون الأمة في حالة أقوى عندما تعيش بظل دولة واحدة ؛ فالدولة الواحدة تضيف عوامل مشتركة جديدة ؛ تقوي الروابط الموجودة ، وتضيف اليها روابط اخرى . إنّ المتغيرات التي تتفاعل بظلها امة ؛ لا يمكن ان تكون هي نفس المتغيرات ، التي تتفاعل بظلها امة اخرى . فتفاعل الامة مع ظروفها امر فريد وكما أنّ تكوين الفرد نفسيا وفكريا وجسميا يتم بصورة فريدة ؛ بسبب تعقيد المتغيرات . فكذلك الامة ؛ لذلك لا يوجد هناك امة تتطابق بصورة تامة مع أمة أخرى . قد يكون هناك تقارب وبعض التشابه إلا أنّ ذلك يبقى دون التطابق ؛ لكل أمة شخصيتها الفريدة بها .

العالم يتكون من أفراد ، ولكن الافراد يعيشون بضمن أمم . والامم تعيش بعلاقات معينة فيما بينها ، قد تكون علاقات تعاون وقد تكون غير ذلك . إنّ خلق الظروف الدولية الملائمة لصحة حياة كل أمة شيٌ ضروري . كما هو الحال بالنسبة لوضع الفرد في داخل المجتمع . لذلك كان من الضروري ايجاد علاقات

دولية صحيحة تقوم على التعاون والسلام والمرونة ؛ بحيث تستطيع عملية التجديد ان تمر بسهولة من خلال الاشكال والتنظيمات الموجودة ، من دون اصطدام وبذلك تكون عملية الصراع سلمية وهادئة بدلا من ان تكون غير ذلك .

ان نظام الحكم في الامة الواحدة يجب هو ايضاً ان يكون مرتكزا على هذه الاعتبارات ؛ وعلى هذا الفهم لماهية الفرد ودوره في عملية التقدم ؛ لذلك كان للمجتمع دور في تقوية ميول الخير في الافراد ؛ من خلال التربية ومن خلال القانون ؛ وبذلك تلعب الدولة دورا لا يمكن اغفاله ؛ فعملية التقدم لا تتم بواسطة الافراد ؛ كل على حدة ولوحدهم كما تقول النظرية الرأسمالية . لذلك فدور الدولة ليس سلبيا ومقتصرا على حفظ الامن . بل هو ايجابي ايضا في تنمية الثقافة والاضطلاع بدور التعليم والمحافظة على الصحة العامة وتنفيذ المشاريع ذات النفع العام وقيادة التقدم .

وللدولة دور مهم في الحياة الاقتصادية . هو دور التنظيم ؛ فالحياة الاقتصادية بامكانها ان تكون مساعداً أو معرقلا لعملية التقدم ؛ بالمعنى الذي ذكرناه فحسن توزيع الثروة وإلغاء الاستغلال ؛ والتأمين الاجتماعي وتوفير العمل للجميع ورفع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه الاجتماعي . وتوفير الخدمات ؛ أمور من شأنها أن تخلق الظروف الملائمة لعملية التقدم ؛ من خلال الصراع الذي يدور في داخل الفرد وداخل المجتمع .

ان تغليب ارادة الخير فرديا واجتماعيا تحتاج لما يساعدها على ذلك . والعكس يكون مفعول سوء توزيع الثروة والاستغلال والفقر والجهل والمرض . لذلك فللدولة دور في بناء نظام العدالة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية اي بناء الاشتراكية وبهذا المعنى فلكل امة بفعل شخصيتها المستقلة وحاجياتها وظروفها الخاصة ، نظامها الخاص اقتصاديا واجتماعيا اي لها اشتراكيتها الخاصة .

ويتضح من كل ذلك أن مسألة النظم الاقتصادية والاجتماعية هي مسألة خاصة

بكل أمة ولا يوجد هناك نظام يصح لجميع الامم ؛ وبذلك تنتفي الاممية بهذا المعنى . من المفيد ان تطلع الامم على انظمة الامم الاخرى ، من أجل توسيع الافق والمقارنة والتبصر ، ولكن عملية بناء النظم هي في النهاية عملية خاصة بكل امة إذ لا توجد أمة تتطابق بظروفها وحاجاتها من جميع الوجوه مع امة اخرى . التشابه قد يوجد ، أمّا التطابق فهو معدوم . وفي هذا الاطار من الفهم للطبيعة البشرية ؛ تتضح اهمية الامور غير المادية كالكرامة والحرية والمثل الاخلاقية ؛ فالانسان في جوهره يحمل جزءً من ارادة الخير في الكون وذلك أمر مثالي من دون شك ؛ وهو الذي يجعل للانسان قيمة بحد ذاته بغضّ النظر عن جوانبه المادية كالثروة والقوة والصفات الجسمية .

هناك فرد موهوب بمعنىً أنّه يملك صفات خاصة ؛ تؤهله للبروز في ناحية من النواحي ؛ وسبب ذلك هو أنّ حالة من التفاعل الخاص قد نتج عنها علاقة متقدمة ؛ بين الجانب المثالي وبين الجانب الاناني ؛ بحيث تغلب الاول على الثاني لحد بعيد . وظهور هذه الحالات أمر من الصعب التَنَبُّؤ به ؛ أو السيطرة عليه ، لا عن طريق الوراثة ولا عن طريق التربية . وذلك لأن مثل هذه العلاقات تكون عادة معقدة ؛ ولا يوجد قانون رياضي كامل لضبط مفعولها . إلا أنّ حالة التقدم العام والنهوض الشامل للمجتمع من شأنها أنْ تؤثر في توجيه الفرد فتقوّي فيه الجوانب الخيّرة على الجوانب الرديئة ؛ وبمرور الزمن يتضافر عامل الوراثة والعامل الاجتماعي . فيلاحظ ارتفاع في مستوى الافراد من جميع الوجوه ؛ ولكن ذلك لايعني بالضرورة ظهور المصلح اوالقائد المهم تاريخيا . إنّ عملية ظهور المصلحين أو الانبياء أو القواد لا تخضع لقانون محدد . وان كانت الظروف التي يعيشها المجتمع يمكن أن تؤثر بعض الشيْ في ذلك الا أن ذلك لا يعني وجود قاعدة رياضية صالحة للتطبيق في هذه الحالات .

ان عملية التقدم الاجتماعي حسب هذا المفهوم عملية في اساسها النهائي روحي ، وان كانت العوامل المادية تمتزج بها وتؤثر فيها ومحورها هو الانسان الذي هو خلية المجتمع ومحوره . لذلك كانت العناية بالانسان تحتل المركز الاول ، وهذا هو معنى القول بان الانسان هو وسيلة النهضة وهو هدفها . فالنهضة التي تتخذ شكل الثورة تبدأ بالانسان فهو وسيلتها وهو هدفها لأن تغليب الجانب الخيّر فيه ، هو الهدف ليتغلب على الجانب الرديء ويؤدي ذلك بدوره ، الى خلق قوة جديدة تدفع في اتجاه التقدم وهكذا .

★ ★ ★